الإنصاف في الشّعر الجاهلي (عنترة بن شدّاد نموذجاً)

د. علي عبد الرحمن الفيتوري
كلية التربية – جامعة مصراتة

ملخـــص:

يتناول البحث موضوع الإنصاف من خلال شخصية عنترة بن شدّاد، والربط بين هذه القيمة الإنسانية النبيلة "الإنصاف" وهذه الشخصية التي كانت مزيجاً من الشدّة واللّين، والحريّة والعبودية، والقوّة والضّعف، له الأثر البالغ في تحريك أعماق النفس البشريّة، والبحث إذ ينحى هذا المنحى يطمح إلى تلمّس الأسباب التي تفعّل ذاك الموروث الزاخر بالقيم والعطاء.

فبدأ البحث بمقدّمة فيها إشارة إلى الغاية من هذا العمل، والتنبيه إلى ما يمكن أن يكون الأفضل في تناول ذاك الموروث، ثمّ كانت وقفة على مصطلح الإنصاف بياناً وتبيُّناً.

وأخذنا لذاك البيان والتبيُّن من أشعار الغابرين نماذج توضح ذاك البعد.

وكان للشخصية النموذج في هذا العمل، براح للتعريف بها والتعريف بذاك العصر في غير إطالة ولا استقصاء، والمعوّل عليه في ذلك، هو توضيح التحوّل الذي طرأ على تلك الشخصية في مسيرة حياتها، وما تنطوي عليه تلك النفس في جميع مراحلها، وكذلك توضيح نظرة ذاك المجتمع إلى السّواد الذي يعني العبودية، وكانت في هذا التعريف نماذج شعرية تساعد في توضيح ذلك.

ومنها قول بسطام بن قيس مخاطباً عنترة بن شدّاد "الرمل"

حادثان الدّهر تأتي بالبدع ترفع العبد وللحُرِّ تضع

ثم انتقلنا إلى الإنصاف في شعر عنترة، ذاك الإنصاف الذي كان في بداية هذا العمل بمدلوله وليس بلفظه، ومن ذلك قول عنترة "الطويل"

سوادي بياضٌ حين تبدو شمائلي وفعلي على الأنساب يزهو ويفخرُ
ألا فليعش جاري عزيزاً وينثني عدوّي ذليلاً نادماً يتحسّرُ

وقد ذكر الشاعر الإنصاف بلفظه ومن ذلك قوله "الوافر"

ونحن المنصفـــــون إذا دُعينا إلى طعن الرماح السَّمهريّة

والمتأمل في شعر عنترة يملح ذاك الإنصاف لا يخرج من مسارين اثنين:

إنصاف النفس، وإنصاف الآخرين، وهذا الإنصاف يكون في زفرات متعددة الأشكال والألوان.

*** ومن تلك الألوان في إنصافه النفس ما يلي:**

1- الإنصاف بالرفض: ويبدأ النموذج المختار في هذا الصدد بقوله "الكامل"

مازلت مرتقياً إلى العليـــــاء حتى بلغتُ إلى ذوي الجوزاء

2- الإنصاف باللوم والعتاب: ويقول في ذلك من "الطويل"

أعاتب دهراً لا يلينُ لناصحٍ وأخَفي الجوى في القلب والدمع فاضحي

3- الإنصاف بالإكبار: وفيه يقول "الطويل"

دهتني صروفُ الدهر وانتشب الغدرُ ومن ذا في الناس يصفو له الدهر

*** ومن إنصافه الآخرين:**

1- الإنصاف بالإقرار: ومما قاله في ذلك: "الوافر"

لقينا يوم صهباء سرية حناظلة لهم في الحرب نيّة

2- الإنصاف بالوفاء: ومنه قوله "الوافر"

سكتُ فغرَّ أعدائي السكوتُ وظنوني لأهلي قد نسيتُ

3- الإنصاف بالبكاء " قال فيه " البسيط "

يا طائر البان قد هيجت أشجاني وزدتني طرباً يا طائر البانِ

وبعد هذا توصّل البحث إلى نتائج دُونت في خاتمة هذا العمل على هذا النحو:

1- تبين من البحث أن تلك التجارب الإنسانية -منذ زمن بعيد- قد أشادت بالإنصاف ودعت إليه، ورأت أنه السبيل إلى ما تنشده الحياة الإنسانية.
2- أكّد البحث أن سمو النّفس وعلوها يتجلّى في ترفعها عن الصغائر، وتشبّعها بالمثل العليا والقيم الإنسانية الراقية.
3- أثبت البحث أن النفوس الأبية ميُالة للعفو، محبّة للسلم، تقبله وتجنح إليه.
4- توصّل البحث إلى أن الشاعر في هذا العمل كان مثالاً للعزيمة والإصرار في نيل طلبته التي ينشدها كل ذلك في أنفة واعتزاز وكبرياء.
5- بدا للبحث من خلال معاودة النظر في ثنايا هذا الموروث، أن فيه ما يستحق التأمل والبحث والعناء.
6- أكّد البحث أن المشاعر الإنسانية تتجاوب فيما بينها وتتناغم، رغم تباعد السنين وتباين الأزمنة.

وكان الاعتماد في هذا العمل على مصادر ومراجع متعددة، في معظمها تُعنى بالشعر القديم، والوصف والتحليل والاستقراء هو المسار الذي اتُّخذ سبيلاً لهذا العمل.

مقدمة:

عُني كثير من الدراسين بدراسة الشعر القديم، محاولين الاغتراف من عطائه والظفر بشيء من نفائسه، فمنهم من نهل من مناهله، ومنهم من احتسى كحسو الطير.

ومن خلال الاقتراب من ذاك الموروث -دراسة وتدريساً- بدا توجّس طلابه، وإقبالهم عليه بفكرة مسبقة مفادها أنه مركبُ صعب، والمُلاحظ إبّان تدريسه أن له قدرة على أسر سامعيه إذا أُلقي إلقاء جيداً، وقُدّم تقديماً جميلاً.

وأغلب الظّن عندي، أن من أسباب العزوف عن ذاك الموروث الثري هو العرض والتقديم، فتقسيمه إلى أغراض مثل المدح والهجاء والغزل والرثاء.. وتقسيم شعرائه إلى سادة وفرسان وصعاليك وعبيد.. يجعل الكثير من نفائسه يذوب في هذه التقسيمات ويتلاشى في ثنايا تلك العموميات، ومن المعروف أن للشعر ومضات تُرسل إلى من يتحسس تلك الهمسات،

ففي ثنايا الفخر تلحظ الأنين والانكسار، وفي رقّة الغزل تلمح الشدة والاقتدار، وفي كثرة المدح تبدو ملامح الذّم والاحتقار، ولكننا نرى في الرثاء –أحياناً– بوارق الأمل والانتصار..

وقد نجد في أشعار المهمّشين في تلك الحقبة مُثُلاً وقيماً وصوراً وقف دونها الكبراء، وقد تتجلّى الروائع من أفواه المغمورين، وتشرئب النفوس إلى أشعار الحيارى والمقهورين.

ومرادنا في هذا أن نزيل القشرة عن اللباب، بمعاودة النظر في هذا الموروث، ومحاولة تفعيل كل ما من شأنه إيقاض نفوس خامدة، وتحريك قلوب ساكنة، وإثارة همم فاترة، وتوجيه عقول حائرة، كل ذلك إلى الإنصاف، وما فيه من شمم وإباء ومروءة وبهاء.

وهنا حاولنا أن نتلّمس ذاك الإنصاف بين زفرات رجل عرف العبودية وتجرّع كؤوسها، وتربّع على عرش الفروسية فكان من سادات العرب ورؤوسها، ومن هذا المزيج النفسي، تنبجس روائع الفن القولي.

الإنصاف:

الإنصاف إعطاء الحقّ، والإنصاف أن يعطي الإنسان من الحق كالذي يستحقه لنفسه، وأنصف الرجل أي عدل[1].

ونجد مَنْ فرّق بين الإنصاف والعدل بقوله: "أنّ الإنصاف إعطاء النَّصْفِ؛ والعدل يكون في ذلك وغيره، ألا ترى أنّ السارق إذا قُطِع قيل إنه عدلٌ عليه ولا يقال إنه أُنْصِف"[2].

ونجد أيضاً مِنْ مرادفات كلمة الإنصاف، القِسط والعدالة والحقّ، ويقابلها الجور والظلم والعُتوّ والبغي والاستبداد[3].

1– لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، ط 3، بيروت، 1994م، مادة (نصف).

2– معجم الفروق في المعاني، محمد فريد عبد الله، دار المواسم، ب. ط، ب. ت، مادة " نصف".

3– معجم المترادفات والأضداد، سعدي الضّناوي وجوزيف مالك المؤسسة الحديثة للكتاب ناشرون، طرابلس، لبنان، 2007م، مادة "إنصاف".

وعندما ننظر في أقدم أشعار الغابرين التي يمكن الاطمئنان إليها، نلحظ إشادةً بهذا المعنى، بل نجد التحذير من انتقاص الحقوق، فهذا طرفة بن العبد يقول[1]: "الطويل"

وكيف تضِلُّ القَصْدَ والحقُّ واضحٌ وللحقِّ بينَ الصالحينَ سَبيلُ

ويقول حاتم الطائي في هذا الصدد[2]: "الطويل"

ولا أَظْلِمُ ابن العَمِّ إن كان إخوتي شُهُوداً وقد أوْدى بإخوتِهِ الدّهرُ

ويتراءى لنا –أحياناً– في هذا الموروث توضيح وتبيانٌ لما يترتب عن انتقاص الحقوق، قال طرفة بن العبد[3]: "المتقارب".

وذو الحقِّ لا تنتقص حقَّه فإن القطيعة في نَقصِهِ

ولعله من المعروف أنَّ استقصاء ذاك الموروث الثري في هذا المعنى، تترتب عليه الإطالة التي لا تُقبل في مثل هذا العمل، الأمر الذي جعل صاحب هذه الأسطر يتّخذ أحد شعراء تلك الحقبة نموذجاً لما أراد الحديث فيه، وبطبيعة الحال لن يكون الاختيار جُزافاً، بل كان الاختيار لتلك الشخصية التي ظُلمت نطفةً، وحُرمت في طفولتها وأَنّتْ في صباها، وتجرّعت حُرقة الوجد في اكتمالها، ورقصت اللوامع في كفّها، ولبقت بتصريف القناة بنانها، استنصرتها الفوارس، ولاذت بها الأبطال، وداع صيتها على رغم ازدراء لونها.

"عنترة بن شداد" وما كان هذا إلا قدراً فهو من صُلب شدّاد بن عمرو بن معاوية[4] فكان من الممكن أن يُولدَ بين سادة القوم، وينشأ في عزهم، ويرفل فيما ينعمون، وما ندري أخيرٌ أريد به أم كان شراً مستطيراً، فأسوأ الهجناء حظاً وأوضعهم منزلة اجتماعية، هم أولئك الذين

1– ديوان طرفه، دار صادر بيروت، 2006م، ب. ط، ص 80.

2– ديوان حاتم الطائي شرح أبي صالح يحي بن مدرك الطائي، قدم له ووضع هوامشه وفهارسه، حنّا نصر الحتّي، دار الكتاب العربي، ط 1، 1994م، ص 66.

3– ديوان طرفه، ص 64، م. س.

4– معجم الشعراء "للمرزباني"، تحقيق عبد الستار فراج، القاهرة الحلبي، 1960م، ص246.

سرى إليهم السواد من أمهاتهم،[1] وهو من أغربة العرب وهم سودانهم، شبهوا بالأغربة لذاك التوافق بين تلك الأجساد وألوان هذه الكائنات،[2] والناظر في حياة هذه الطبقة من تلك المجتمعات يجدها تعيش عند الناس لا بينهم[3].

ونحن نتأمّل هذه الأوضاع الإنسانية نجد التساؤل يستوقف القلم قائلاً: هل الإنسان شرّيرٌ بطبعه؟

ولكن ذاك الجهد الذي قام به المفكرون الذين عُرفوا في القرن الثامن عشر "بالرومانتيكيين" ينادي بأنَّ الشرَّ الفطري لا وجود له في طبيعة الإنسان[4].

وعلى كل فإن النفوس قد استقرت على تلك الأحوال في تلك الحقبة، وتلقتها طبائعهم بالقبول فصارت –بالنسبة لهم– أعرافاً، لأنّ العرف "ما استقرت النفوس عليه بشهادة العقول وتلقته الطبائع بالقبول"[5].

ولعلّ من هذا القبول ما نجده في أبيات بسطام بن قيس بن مسعود بن ذهل[6] تلك الأبيات التي قالها وهو يتأهّب لمنازلة عنترة بن شدّاد، حيث يريد منه الالتزام بما هو معروف على العبيد، والابتعاد عن الحروب، وثنيه عن عبلة بنت مالك فقال:[7] "الرمل"

1- الشعراء السود وخصائصهم في الشعر العربي، عبده بدوي، النهضة المصرية العامة للكتاب، 1973م، ص21.

2- لسان العرب، مادة "غرب"، م. س.

3- الشعراء السود وخصائصهم في الشعر العربي، ص 6، م. س.

4- علم النفس الاجتماعي، د. سعد جلال، منشورات جامعة قاريونس، ط 3، 1989م، ص37.

5- التعريفات (استابنول)، سيد شريف الجرجاني، ب. ط، ب. ت، ص99.

6- هو من أشهر فرسان العرب في الجاهلية وسيد شيبان، يضرب المثل بفروسيته، أسره عينية بن الحارث فافتدى بأربعمائة ناقة وثلاثين فرساً فكان يقال أغلى فداء من بسطام ابن قيس.

7- شرح ديوان عنترة، دار الكتب العلمية بيروت ط3، 2002م، ص79 و80.

حادثاتُ الدّهر تأتي بالبـــــدَع ترفعُ العَبْدَ وللحُرِّ تَضَعْ
خلِّ عنكَ الحربَ يَالوْنَ الدُّجَى واتْبع الحقَّ ودَعْ عنْكَ الطمع
ماركوبِ الخيلِ نُوقٌ في الفلا كُنتَ ترعاها إذا الصبحُ طَلَع
لا ولا عَبْلة مِنْ بعضِ الإما مِثْلُها مَعْ مثلكَ الدَّهْرُ جَمع
فاسْلُ عنها قد حواهَا سيِّدٌ سيفهُ لو ضربَ الصّخر انقطع
يلتقي الأبطالَ في يوم الوَغَى بجنانٍ لا يُدانيهِ فزع
يا بني شيبانَ قد نِلتُ المُنى وَانجَلَى همٌّ فؤَادي واندفع
وغداً أخبركم عن عنترٍ أنَّه قد شَرِبَ الموتَ جُرَعْ

نلحظ من خلال هذه الأبيات أنَّ لسواد اللون الذي يعني العبودية، الأثر البالغ في حياتهم الاجتماعية، فهم يرون أن ركوبهم الخيل ومشاركاتهم في الحروب وشعورهم بحقوقهم الإنسانية، هو من بدع حادثات الدّهر والباطل والطمع.

وردّ عليه عنترة بأبيات منها قوله[1]: "الرمـــل"

إن تكن تشكو لأوجاع الهوى فأنا أشفيك من هذا الوَجع
بحُســـامٍ كلّمـــا جـــردتـــه في يميني كيفما مال قطَع
وأنا الأسودُ والعبدُ الذي يقصدُ الخيلَ إذا النَّقع ارتفع

وعندما نتأمّل في حقيقة الفارس في ذاك الزمان، نجد أن الطبع الغالب عليه هو علو النفس، فالفروسية مروءة قبل أن تكون غضباً وفتكاً؛ ومحبّة قبل أن تكون بغضاً ومقتاً[2].

وهذه المروءة المتأصلة في نفوس الفرسان، هي التي تجعلنا نقبل أن يكون عنترة بن شداد قد آلمه مقتل بسطام بن قيس ورثاه رثاء حاراً[1].

1- المصدر نفسه، ص 80.

2- الخطاب الإبداعي الجاهلي والصورة الفنية، عبد الإله الصائغ، المركز الثقافي العربي، ط1، 1997م، ص73.

ولعلّه من ضرورات هذا العمل أن يتراءى عنترة بن شداد في حلّة المروءة، أو في فروسيته التي تشمل هذا المعنى الإنساني، على أن نتبصّر كل ذلك من خلال أعماقه التي زفرت بهذه الومضات الإنسانية.

فإذا كانت تلك الحقبة الزمنية قد غلب عليها الجهل، فإن عنترة وإن كان من أبناء ذاك الزمان فإن الحلم أقرب إلى طبعه من الجهل، فيقول[2]: "الطويل"

وللحلم أوقاتٌ وللجْهلِ مِثلهـــا وَلَكنّ أوقاتي إلى الحِلم أقربُ

ويمتزج الحلم والجود والكرم بين أضلاع عنترة، وتتجافى تلك النفس عن طبع اللئام لأن نفس الفارس لا تنمو فيها إلا الشيم النبيلة، ولا مكان فيها لخسائس اللئام فيقول[3]: "الطويل"

يرون احتمالي عِفّـــة فيـــريبهم توفّرُ حِلمي أنني لستُ أغضبُ
تجافيتُ عن طبع اللِّئام لأنني أرى البُخل يُشنا والمكارمَ تُطلبُ
وأعلمُ أنّ الجُود في النّاس شيمةٌ تقوم بها الأحرارُ والطبعُ يغلبُ

وتسمو تلك النفس الأبية، التي كان قدرها أن تسكن في غير محلّها لتخطف الأبصار والألباب بهذه البارقة التي تشدّ المتأمّلين[4]: "المتدارك"

وأيْسَرُ من كفِّي إذا ما مدَدْتُها لنيل عطاءٍ مَدُّ عُنقي لذابح

ومن الطبيعي أن هذه النفس لا تخمد فيها هذه المثل، لكنّها تغمر محيطاها وتؤنس جوارها فها هو يقول[5]: "الطويل"

وإني لأحمى الجار من كل ذلَّةٍ وأفرح بالضيف المقيم وأبهجُ

ويقول في هذا الصدد أيضاً[1]: "الطويل"

1- معجم الشعراء الجاهلين، عزيزة بابيتي، دار صادر، ط1، 1998م، ص54.
2- شرح ديوان عنترة، ص12 ، م. س.
3- نفسه، ص13.
4- المصدر السابق، ص33.
5- نفسه، ص31.

سوادي بياضٌ حين تبدُو شمائلي وفعلي على الأنساب يزهو ويفخرُ
ألا فليعش جاري عزيزاً وينثني عدُوِّي ذليلاً نادماً يتحسّرُ

ونلحظ أن هذا الفارس يربط بين متلازمات في بيت واحد فلا علوّ مقام بدون كرم النفس ولا كرم للنفس عند هوان الجار فيقول[2]: "الطويل"

وإني عزيز الجار في كل موطن وأُكرم نفسي أن يهون مَقامي

وتأنف نفس ذاك الفارس من مجاورة اللئام الذين يقبلون أن يُضام الجار بينهم فيقول[3]: " البسيط "

ولا تجاور لِئاماً ذَلَّ جَارهُم وخلّهم في عراص الدّار وارْتحلِ

وحيث إننا في صدد الحديث عن مواقف عنترة وحسن الجوار، فلابد أن يكون هذا المشهد الذي تلهج اللألسن بذكره، في ختام هذا الجانب الذي نجد فيه عنترة مثالاً للجوار الحسن فيقول[4]: "الكامل"

وأغُضُّ طرفي ما بَدتْ لي جارتي حتى يُواري جارتي مأواها
إني امرؤٌ سَمْحُ الخليفة ماجدٌ لا أُتبعُ النّفسَ اللجوجَ هواها

جسّد الشاعر في هذا المشهد إحساسات وانفعالات باستخدام الواقع، هي في حقيقتها شديدة الأسر، وبمثل هذا يصل الشاعر إلى قمة الأهداف الفنية الزاخرة بالإيحاءات الفياضة، فقد يوفّق الشاعر في التصوير بالحقيقة كما يوفق في التصوير بالمجاز، وفي موروثنا الأدبي نماذج شعرية راقية تؤكد هذه الوجهة[5].

1- المصدر السابق، ص 66.
2- نفسه، ص 136.
3- المصدر السابق، ص 109.
4- نفسه، ص 153.
5- التصوير الشعري رؤية نقدية لبلاغتنا العربية، عدنان حسن، قاسم الدار العربية للنشر والتوزيع، 2000م، ص247.

ويهزّ عنترة بن شداد أعماق النفوس الصافية النقية، بتلك الهمسات الراقية الأدبية، متخذاً أداته في ذلك كل قيمة إنسانية، جُبلت على حُبّها الفطرة البشرية، فالوفاء من أجمل الخصال الإنسانية، وعنترة لم يغفل ذلك بل أشاد به ممزوجاً بالإشادة بنفسه، مزدرياً خصومه الذين يصفهم بالجحود قائلاً[1]: "الوافر"

ألا مَنْ مبلغٌ أهــلَ الجُحُــودِ مَقَال فتىً وفيٍّ بالعهودِ

وقال في هذا الصدد أيضاً[2]: "الطويل"

إذا الريحُ هبّت من رُبى العلَم السَّعْدي طفا بَرْدُها حرّ الصبابةِ والوجْد

وذكرني قوماً حفظت عهودَهم فما عَرَفوا قَدْري ولا حفظوا عَهْدي

ولعلّ لبُاب الفروسية يتجلى في هذا الذي يطالعنا في بيت عنترة، وهو يصور أقصى مراحل السمو الإنساني، ألا وهو العفو عند المقدرة، ويعظم مثل هذا الصنيع كلما كانت الرغبة فيه أشد، فعنترة يعفو عن الأموال والحريم، ويزداد هذا المشهد تسامياً عندما يُتوّج بالإحسان عقب العفو، فهو بعد هذا العفو يتولّى حماية القوم فيقول[3]: "الكامل"

فعفوتُ عن أموالهم وحريمهم وحَمَيْتُ رَبْعَ القوم مِثْل حِمَاكِ

وخاصية العفو هذه نجدها في كل نفس أبيّة فــ "النفس الفارسة العربية ميّالة للسلم"[4] تحبه وتقبله وتجنح إليه.

ولعل الناظر فيما سبق لا يجد الإنصاف بلفظه، ولكنه يجده في معناه، فالحلم إنصاف، لأن في الجهل جورٌ وظلم وإجحاف ومراعاة حق الجار عدل وإنصاف، لأن في تضييعه بغي واستبداد، وفي الوفاء يكمن الحق والعدل، وفي الخيانة تكمن الخسّة والنذالة.

1- شرح ديوان عنترة، ص 44، م. س.

2- نفسه، ص58.

3- الإبداعي الجاهلي والصورة الفنية، ص 98 ، م. س.

4- شرح ديوان عنترة، ص 88.

وقد ذكر ابن شداد الإنصاف صراحة بل وذكر حرصه عليه، فهو يُنصف ظالميه ويصبر على ذلك ما استطاع إلى ذلك سبيلاً فيقول: "البسيط"

مازلتُ أُنصفُ خصمِي وهو يظلمني حتى غدا من حُسامي غير مُنتصفِ

وقال[1]: " الوافر "

ونحن المنصفون إذا دُعينا إلى طعن الرماح السَّمْهَريّة

وأشاد بالإنصاف قائلاً[2]: "الكامل"

المُظهر الإنصاف في أيامه بخصاله والعدلَ في بُلْدانه

وتزفر تلك النفس بمرارة الظلم وقلّة الإنصاف قائلاً[3] "الطويل"

أُذكّر قومي ظُلمَهُم لي وبغيهم وقلّة إنصافي على القرب والبعدِ

بنيت لهم بالسيف مجداً مُشَيّداً فلما تناهَي مجدُهُم هدموا مجدي

وقال[4]: "الطويل"

إلى الله أشكُو جَوْرَ قومي وظُلمهم إذا لم أجِدْ خلاًّ على البُعد يعْضُدُ

والمتتبع لأشعار هذا الرجل، يجد الإنصاف فيها على أشكال متعددة، وإن كان في مُجمله لا يخرج من كونه إنصاف النفس وإنصاف الآخرين، وهو في كل هذا يضفي عليها من أسلوبه وشخصيته ما يجعلها جديرة باسمه وعبقريته فأفكاره ترتدي ثوباً خاصاً يجعلها غاية في الإبداع[5].

1- نفسه، ص 156.

2- المصدر السابق، ص 141.

3- نفسه، ص 50.

4- المصدر السابق، ص 60.

5- مشكلة السرقات في النقد العربي، محمد مصطفى هداره، المكتبة الإسلامية بيروت، ط 2، 1975م، ص 301.

لأن "الأدب الناجح ينبغي أن يكون صدىً للحياة العامة وانعكاساً للحياة الخاصة"[1].

ويتجلّى إنصافه النفس فيما يلي:

1- الإنصاف بالرفض:

عرف عنترة بن شداد تلك النفس التي تسكن بين جوانحه، وأراد أن يوفيها حقها، فرفض لأجلها الازدراء والإهانة، فأجهد تلك النفس لطلب العلياء، فما استكانت حتى بلغت به الجوزاء.

فقال في ذلك[2]: "الكامل"

ما زِلْتُ مرتقياً إلى العلْياءِ حتى بلغْتُ إلى ذُرَى الجوْزاءِ
فَهُناك لا ألوي على منْ لامني خَوْفَ المماتِ وفُرْقَةِ الأحياءِ
فلأُغْضبنَّ عَوَاذلـــي وحواسدي ولأصبرَنَّ على قِلّي وجَوَاءِ
ولأجْهَدَنَّ على اللقاء لكي أرَى ما أرتجيه أو يَحينَ قضائي
ولأحْمينَّ النفس عن شهواتِها حتى أرى ذا ذِمَّـــةٍ ووفـــاءِ
من كان يجحدُني فقد بَرِح الخفا ما كنتُ أكْتُمه عن الرُّقباءِ
ما ساءَني لوني واسْمُ زَبِيبةٍ إذ قصَّرتْ عن همّتي أعدائي
فلئن بقيـــتُ لأصنعـــنَّ عجائباً ولأبكَمـــنَّ بلاغـــة الفصحـــاءِ

2- الإنصاف باللوم والعتاب:

يتقلب ذاك الرفض بين أضلاع عنترة، كما تتقلب تلك الصحراء، بين الشدّة واللين، وبين البهجة والانطفاء، فهو يعاني قسوة الزمان، وجور الاهل، وبعد الأحبة وعلوم النفس التي لا يملك إنصافها في هذا المشهد إلا باللوم والعتاب فيقول[3]: "الطويل"

1- فنون الشعر في مجتمع الحمدانيين، مصطفى الشكعة، عالم الكتب بيروت، 1981م، ص 12.
2- شرح ديوان عنترة، ص 8 ، م. س.
3- المصدر السابق، ص 33 ، م. س.

أُعاتِب دهــراً لا يلينُ لناصــح وأُخْفي الجَوى في القلْب والدَّمْعُ فاضحي
وقوْمي مع الأيام عَوْنٌ على دَمي وقــد طلبونــي بالقَنا والصفائــح
وقد أبعَدونــي عن حبيــب أحبُّه فأصبحْتُ في قَفْر عن الإنس نازح
وأيْسَرُ مَن كفِّي إذا ما مَدَدْتُها لِنَيْــل عطاءٍ مَدُّ عُنْقــي لذابــح
فيا ربِّ لا تجعل حياتي مَذَمَّةً ولا مَوْتتي بيــن النســاءِ النوائــح
ولكنْ قَتيلاً يَدْرُجُ الطيرُ حوْلَه وتشْربُ غِرْبانُ الفَلاَ من جوانحي

لا تخفى في هذه الأبيات تلك المعاناة التي يعيشها الشاعر، فهو بين تلك النظرة الدونية التي يُقرّها ذاك المجتمع له ولأمثاله، وعلو تلك النفس التي لا تروم الهوان، وهو يعي أنه يعيش حالتين في قومه، حالة السلم الذي لا يعدو أن يكون فيه سوى عبدٍ لا مكنة له بين قومه، والأخرى في حالة الحرب التي تكون فيها مكانة الرجل بقدر فعاله، وعنترة صاحب القدح المعلّى فيها[1].

3- الإنصاف بالإكبار:

لعلّ المدرك لتلك النفس وعلوّها، والمدرك أيضاً لذلك الازدراء الذي ترسله تلك النظرات، أو يُصاغ في تلك العبارات، يستوجب عليه إنصاف تلك النفس بإكبارها والرفع من شأنها فهي أبيّة لا يليق بها الازدراء، وهي كريمة لا تستحق إلا الثناء، وعنترة في ذلك يقول[2]: "الطويل"

دهتني صُروفُ الدهر وانتَشَب الغَدْرُ ومن ذا الذي في الناس يصفو له الدهر
وكم طرقَتْني نكبةٌ بعد نكْبةٍ ففرجْتُهَا عني وما مسني ضُرُّ
ولولا سِناني والحُسَام وهِمَّتي لما ذُكرتْ عبْسٌ ولا نالها فخر
بنيتُ لهم بيتاً رفيعاً من الْعُلا تخرُّ له الجوزاءُ والفرْغُ والغفْر
وها قد رحلْتُ اليومِ عنهم وأمرْنُا إلى مَنْ له في خَلْقِهِ النهيُ والأمر

1- الشعر الجاهلي قضاياه وظواهره الفنية، كريم الوائلي، دار العالمية، ب. ط، ب. ت، ص120.
2- شرح ديوانه، ص 71 - 72 ، م. س.

سيذْكُرني قوْمي إذا الخيلُ أقبلتْ وفي الليلة الظلْماءِ يُفْتَقَدُ البدر
يَعيبُون لوْني بالسوادِ جَهالةً ولولا سواد الليل ما طلع الفجرُ
وإن كان لوْني أسْوَداً فخصائلي بياضٌ ومِن كَفَّيَّ يُسْتَنزلُ القَطْرُ
محوْتُ بذكري في الورى ذكر مَنْ وسُدْتُ فلا زيْدٌ يُقَالُ ولا عمرو مضى

لعله من الواضح في هذه الأبيات، أنَّ نفس هذا الشاعر الفارس الشجاع لا تحتمل العبودية وفيها من الشمم والإباء والجرأة شيء كثير، فكانت تتألم أشدَّ الألم لما تلقى من الاحتقار والازدراء[1].

وهو بالتالي يكبر تلك النفس، بل يغلو في إكبارها عندما يجعل من كفيّه يُستنزل القطر، ولكننا نقرأ من هذا الغلو مرارة المعاناة، وشدة وقع الهوان، ومحاولة الإنصاف بقدر ما تجرعت تلك النفس من الهوان والاحتقار.

وإذا كنَّا قد لامسنا فيما سبق إنصاف عنترة نفسه في صور متعددة فإننا سنلاحظ إنصافه الآخرين، ويتجلى ذلك فيما يلي:

1- الإنصاف بالإقرار:

ونحن إذ نتأمل أشعار عنترة، نجده ينصف الخصوم بإقراره لمكانتهم، كما ينصف أحبته، وإذا كان إنصاف الأحبة جميلاً، فإن إنصاف الخصوم أجمل فهو في الأجمل يقول[2]: "الوافر"

لَقينا يوم صهباء سريَّهْ حناظلةً لهم في الحرب نيَّهْ[3]
لقِيناهم بأسيـــــافِ حدادٍ وَأسْدٍ لا تَفرُّ من المنيَّـــــهْ

1- أدباء العرب في الجاهلية وصدر الإسلام، بطرس البستاني، دار الجيل بيروت، ب. ط، 1989م ص 169.

2- شرح ديوان عنترة، ص 156 – 157، م. س.

3- حناظلة: الحناظل موضع، وحنظلة قبيلة، وهم أكرم قبيلة في تميم، يقال لهم حنظلة الأكرمون أوبوهم حنظلة بن مالك بن عمرو بن تميم.

وكان زعيمُهُمْ إذ ذاك ليثاً هزبْراً لا يبالي بالرزيَّه
فخلَّفناه وسْط القاع مُلْقًى وها أنا طالبٌ قتل البقيَّه
وَرُحْنا بالسيوف نسوق فيهم إلى رَبوات معضلةٍ خفيَّهْ
وكم من فارس منهم تركْنَا عليه من صوارمنا قضيَّه
فــوارسُنا بنــو عَبْسٍ وإنَّا ليُوث الحرب ما بين البريَّه
نُجيد الطعنّ بالسُّمْر العَوالي ونضرب بالسيوف المَشْرَفيَّه
وتُنْعلُ خيلنا في كل حرب من السادات أقحافاً ذميَّه
ويوم البذل نُعْطِي ما مَلَكْنا من الأموَال والنَّعَم البهيَّه
ونحــن العادلــون إذا حكمنا ونحن المشْفِقُونَ على الرعيَّه
ونحْنُ المنصفون إذا دُعينا إلى طعن الرماح السَّمْهَريَّه
ونحــن الغالبــون إذا حملْنَا على الخيل الجيادِ الأعوَجيَّه
ونحن الْموقدون لكل حرْب ونصــلاها بأفئــدة جَريَّــهْ
ملأْنا الأرض خوفاً من سَطَانا وهابتْنَا الملـــوك الكسْرَويَّهْ
سَلو عنا ديار الشام طُراً وَفُرســان الملوك القيصريَّه
أنا العبدُ الذي بديار عبْس رُبيت بعــزةِ النّفــس الأبيَّه
سلوا النعمان عني يومَ جَاءَتْ فوارس عصبة النّار الحميَّه
أقمتُ بصارمي سُوقَ المنايا ونِلت بذابلي الرُّتَبَ العليَّه

ومن الواضح في هذه القصيدة هذا التباين بين الرأفة والبطش، وبين الإنصاف والبغي، وبين التعالي والانكسار، فالشاعر في هذ القصيدة متذبذب بين لسانه ولسان القبيلة فقد اندمج الشاعر في قبيلته وعبّر بلسانها في معظم أبيات هذه القصيدة عدا الشطر الثاني من البيت الرابع، والأبيات الثلاثة الأخيرة التي نجده يستخدم ضمير المتكلم المفرد.

وقد تراءى لبعض الباحثين أن عنترة يضفي صفات البطولة والشجاعة على خصومه الذين يتمكن من قتلهم والانتصار عليهم، ليدل على أنه أكثر منهم بطولة وفروسية[1].

ولا أجاري هذا القول، لأن أُلئك الفرسان الذين يذكرهم عنترة لم يكونوا غرباء على قومه بحيث يضفي عليهم ما ليس فيهم من الشجاعة والفروسية والإقدام، والذي يزيد في تأكيد هذه الوجهة، أنه لم يقتصر على ذكر بأسهم وشدّتهم في هذه القصيدة، بل ذكر مكانة القوم، فهم الموصوفون بالأكرمين بين العرب، ولا يتسنى هذا الذكر إلا لمنصفٍ.

وفي إنصافه الأحبة يقول[2]: "البسيط"

ذَنْبي لِعبلةَ ذنبٌ غَيرُ مُغْتَفرِ ... لمَّا تبلَّج صُبح الشيَّبِ في شَعَرِي
رمت عُبيلةُ قلْبي من لواحَظها ... بكل سْهم غَريق النَّزع في الحوَر
فاعْجب لهنَّ سِهاما غير طائشةٍ ... من الجُفونِ بلا قوْسٍ ولا وَترِ
كم قد حَفظتُ ذمامَ القوم من ولَهٍ ... يَعْتــادني بيــن مَيَّادٍ ومُنْهصــر
يا مُنْزلاً أدْمعي تَجري عليهِ إذا ... ضَنَّ السَّحابُ على الأطلال بالمطر
أرض الشَّربَّةِ كم قَضيَّت مُبتهجاً ... فيها مع الغيدِ والأترابِ من وطَرِ
أيامَ غُصنُ شبابي في نُعومتهِ ... الْهُو بما فيهَ من زَهْرٍ ومن ثَمر
في كلِّ يوم لنا من نَشْرها سَحَراً ... ريحٌ شذاها كَنَشْرِ الزهْر في السَّحَر
وكلُّ غصنٍ قَويمٍ راق منظره ... ما حظُّ عاشقها منه سوَى النظر
أَخْشَى عليها وَلَوْلا ذاك ما وقفَتْ ... ركائبي بين وِرْدِ العْزم والصَّدَر
كلا ولا كنتُ بعد الْقُربِ مُقْتنعاً ... منها على طُولِ بُعْدِ الدار بالخَبر
هُمُ الأحبَّةُ إن خانوا وإن نقضوا ... عهدْي فما حُلْتُ عن وَجْدي ولا فكري
أشكو من الهَجْر في سِرٍّ وفي عَلَنٍ ... شَكْوَى تُؤَثر في صلْدٍ من الحجر

1- الشعر الجاهلي قضاياه وظواهره الفنية، ص 131، م. س.

2- شرح ديوان عنترة، ص 68 – 69، م. س.

نلحظ في هذه القصيدة إقرار فارس بذنبه غير المغتفر، لعلبة لمّا غيّر الدهر ملامحه، وإقراره بأنهم هم الأحبّة إن خانوا وإن نقضوا العهد، ولم يكن في حياة الإنسان في تلك البيئات البسيطة أمتع من هذا الوجد ودواعيه[1].

2- الإنصاف بالوفاء:

إن تلك النفوس التي تشرّبت الشهامة، وسرى النُبل في دمها، وجرى الكبرياء في مُخ عظامها لا تينع فيها إلا شجرة الوفاء، فهذا عنترة يذكر فضل قومه ويتناسى ظلمهم عندما صاروا في حاجة إليه فقال[2]: "الوافر"

سَكَتُّ فَغَرَّ أعدَائي السكُوتُ وظَنُّوني لأَهلي قد نسِيتُ
وكيفَ أَنَامُ عن سادات قوْمٍ ونادَوني أجبتُ مَتى دُعيت
بسيْفٍ حَدُّهُ يُزْجي المنـــــايا وَرُمْحٍ صَدْرُه الحتْفُ المميت
خُلِقتُ من الحديد أَشَدُّ قلباً وقدْ بَلِي الحديدُ وما بلِيتُ
وإني قد شربْتُ دَمَ الأعادي بأقحافِ الرُّؤوس وما رويـــتُ
وفي الحرب العَوانِ وُلِدْتُ طفْلا ومن لبَنِ المعامعِ قد سُقِيتُ
فَما للرُّمْحِ في جِسمي نصيبٌ ولا للسَّيْفِ من أعضَاي قوتُ
ولي بيْتٌ عَلا فلكَ الثُّريا تَخرُّ لعُظْم هيبتِهِ البُيوت

الحرص على المثل العالية والخصال النبيلة، شيمة من شيم العرب، فهم يفخرون بأدائها والوفاء بحقّها[3].

1- الشعر الجاهلي مادته الفكرية وطبيعته الفنية، محمد أبو الأنوار، مكتبة الشباب، ب. ط، ب. ت، ص 278.

2- شرح ديوان عنترة، ص 24 – 25 ، م. س.

3- الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه: يحي الجبوري، جامعة قاريونس، ط 6 ، 1993م، ص44.

3- الإنصاف بالبكاء:

عندما يجود الإنسان بما في مقدوره، ويُعطي كل ما يملك، يكون عندئذ قد أنصف من يستحق الإنصاف، وعنترة في هذا المشهد لا يملك إلا اللوعة والبكاء، فكان الإنصاف بتأجج المشاعر والأحاسيس في أعماقه، فتراءى شعره في هذا الصدد زفرات حرّى وعاطفة صادقة فقال[1]: "البسيط"

يا طائـــر البَـــان قد هيَّجْتَ أشجانـــي ... وزِدْتَنـــي طربـــاً يـــا طـــائرَ البَـــانِ
إن كنتَ تندُب إلْفاً قد فُجعتَ به ... فقد شجاك الذي بالبَيْن أشجاني
زِدْني من النَّوح واسعِدني على حَزَني ... حتى تَرى عجباً من فيْض أجْفَاني
وقِفْ لتْنظر ما بي لا تكُنْ عَجِلاً ... واحذرْ لِنفسك من أنفاس نيراني
وطِر لعلَّك في أرض الحِجازِ تَرى ... رَكْباً على عالجٍ أوْ دون نَعْمانِ
يَسري بجاريةٍ تْنَهلُّ أدمُعها ... شوقاً إلى وَطَن ناءٍ وجيرانِ
ناشدتُك الله يا طَيْرَ الحمام إذا ... رأيت يوماً حُمُول القوم فانْعاني
وقُلْ طريحاً تركناه وقد فَنيتْ ... دُمُوعه وهو يبكي بالدم القاني

وعندما ننظر في هذا الإيقاع، الذي انسكبت فيه هذه العاطفة الرقيقة، نلحظ انسجاماً مع ما طرأ من دراسات على حالة الشاعر النفسية والبحر الذي تنصبُّ فيه تلك الومضات، ويتمثل هذا الانسجام في قولهم[2]: "وبحر البسيط تقتضيه العواطف الرقيقة".

والمتأمل في شعر عنترة يلحظ فيه البساطة، فهو لا يثير الفكر بقدر ما يثير الشعور والإحساس، وهذا ليس بغريب عن الشعر، فإثارة الشعور والإحساس مقدمة في الشعر على

1- شرح ديوان عنترة، ص 142 – 143 ، م. س.

2- الخطاب النفسي في النقد العربي القديم، حسن البنداري، مكتبة الآداب، ط 2 ، 2001م، ص174.

إثارة الفكر[1] ويتراءى لنا في شعر عنترة عمق العاطفة وصدقها، وعندما تقوم العاطفة على أساس صحيح، وسبب معقول تكون عميقة قوية تضمن للأدب صفة الخلود[2].

ونحن إذ نستحضر تركيبة ذاك المجتمع الجاهلي، وما يطرأ فيه من الجور والشطط لا نبتعد كثيراً عن اعتبار "نصوص عنترة مرثية لغياب العدل"[3].

النتائـــج:

1- تبين من البحث أن تلك التجارب الإنسانية -منذ زمن بعيد- قد أشادت بالإنصاف ودعت إليه ورأت أنه السبيل إلى ما تنشده الحياة الإنسانية.

2- أكّد البحث أن سمو النّفس وعلوها، يتجلّى في ترفعها عن الصغائر، وتشبّعها بالمثل العليا والقيم الإنسانية الراقية.

3- أثبت البحث أن النفوس الأبية ميّالة للعفو، محبّة للسلم، تقبله وتجنح إليه.

4- توصّل البحث إلى أن الشاعر في هذا العمل كان مثالاً للعزيمة والإصرار في نيل طلبته التي ينشدها كل ذلك في أنفة واعتزاز وكبرياء.

5- بدا للبحث من خلال معاودة النظر في ثنايا هذا الموروث، أن فيه ما يستحق التأمل والبحث والعناء.

6- أكّد البحث أن المشاعر الإنسانية تتجاوب فيما بينها وتتناغم، رغم تباعد السنين وتباين الأزمنة.

1- من قضايا التراث العربي دراسة نصية نقدية تحليلية مقارنة النقد والناقد، فتحي أحمد عامر، المعارف، ب. ط، ب. ت، ص 124.

2- نفسه، ص 126.

3- الخطاب الإبداعي الجاهلي والصورة الفنية، ص50، م. س.

المصادر والمراجع

1- أدباء العرب في الجاهلية وصدر الإسلام، بطرس البستاني، دار الجيل بيروت، ب. ط، 1989م.
2- التصوير الشعري رؤية نقدية لبلاغتنا العربية، عدنان حسن قاسم، الدار العربية للنشر والتوزيع، ب. ط، 2000م.
3- التعريفات سيد شريف الجرجاني (استانبول)، ب. ط، ب. ت.
4- الخطاب الإبداعي الجاهلي والصورة الفنية، عبد الإله الصائغ، المركز الثقافي العربي، ط1، 1997م.
5- الخطاب النفسي في النقد القديم، حسن البنداري، مكتبة الآداب، ط 2، 2001م.
6- ديوان حاتم الطائي، شرح أبي صالح يحيى بن مدرك الطائي، تقديم حنّا نصر الحتّي، دار الكتاب العربي، ط 1 ، 1994م.
7- ديوان طرفة بن العبد، دار صادر بيروت، ب. ط، 2006م.
8- شرح ديوان عنترة، دار الكتب العلمية، بيروت ط 3 ، 2002م.
9- الشعراء السود وخصائصهم في الشعر العربي، عبده بدوي، النهضة المصرية العامة للكتاب، ب. ط، 1973م.
10- الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه، يحيى الجبوري، جامعة قاريونس، ط 6، 1993م.
11- الشعر الجاهلي قضاياه وظواهره الفنية، كريم الوائلي، دار العالمية، ب. ط، ب. ت.
12- الشعر الجاهلي مادته الفكرية وطبيعته الفنية، محمد أبو الأنوار مكتبة الشباب، ب. ط، ب. ت.
13- علم النفس الاجتماعي، سعد جلال، منشورات جامعة قاريونس، ط 3، 1989م.
14- فنون الشعر في مجتمع الحمدانيين، مصطفى الشكعة، عالم الكتب بيروت، ب. ط، 1981م.
15- لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، بيروت، ط 3، 1994م.

16- مشكلة السرقات في النقد العربي، محمد مصطفى هدارة، المكتبة الإسلامية بيروت، ط 2، 1975م.
17- معجم الشعراء الجاهليين، عزيزة بابيتي، دار صادر بيروت، ط 1، 1998م.
18- معجم الشعراء "المرزباني"، تحقيق عبد الستار فراج، القاهرة، الحلبي، ب. ط، 1960م.
19- معجم الفروق في المعاني، عبد الله محمد فريد، دار الموسم، ب. ط، ب. ت.
20- معجم المترادفات والأضداد، سعدي الضناوي، جوزيف مالك، المؤسسة الحديثة للكتاب ناشرون، طرابلس، لبنان، ب. ط، 2007م.
21- من قضايا التراث العربي، دراسة نصية نقدية تحليلية مقارنة النقد والناقد، فتحي أحمد عامر، المعارف، ب. ط، ب. ت.